٢٥ آب ٢٠٠٨

المدى الثقافي : **حين نكون في بغداد**

كامل شياع إلى إلياس

أكتب إليك من البيت المجاور لبيتك الصغير. فأنا، منذ ثلاثين شهراً، أختفي هناك... هرباً من البرد والمطر، واحتجاباً عن عيون أهل لويفن الذين ملّوا رؤية الأجانب بينهم.
من ذلك البيت أخرج من وقت لآخر لألقاك حاملاً حقائب السفر، متظاهراً بالقدوم من بغداد. وما هي إلا أيام حتى يحين موعد سفري، فيرشح في النفس حزن ثقيل، وأختفي من جديد. إنها لعبة مشوّقة، جربتها وأنت تلعب مع أقرانك لعبة الإستغماية. أي قلق يحمل الإختباء؟ أي حماس يثير إعلان الظهور؟ هذه هي لعبتي المتواصلة معك منذ أن أوهمتك بأنني عائد إلى بغداد. لكنها ليست اللعبة الوحيدة بيننا، فأثناء الإختفاء لا أكف عن مراقبتك من ثقب صغير في الجدار.

كل مرة أكلمك بالهاتف، تتسلل نظراتي إليك من ذلك الثقب، فأراك وأنت تسرد لي أخبار يومك، أو تستمع إلى حكايات الجنون في بغداد.
في واقع الأمر، إن المسافة بيننا قصيرة لاتستحق عناء القياس. خمسة أمتار أو أربعة آلاف كيلومتر هي في النهاية أرقام لا معنى لها خارج عالم الحساب. وبغداد ولوفان هما أسمان على الخريطة لا أكثر. ولأن لكل إسم دلالة، دعني أخبرك عن إسم بغداد المشتق، حسب رأي بعض المؤرخين، من الفارسية وتعني البستان.... وهي عرفت في يوم من الأيام بدار السلام. غير إنها اليوم، للأسف، دار حرب كما تعلم. الصور الآتية منها تملأ الشاشات بمشاهد الرعب والخراب ولا تدع مجالاً للشك في ان الحياة فيها واقفة على كف عفريت. كل يوم من أيامها نذير بالنهاية... وكل حدث فيها إمتحان لطاقة التحمّل القصوى. لعلك تستطيع أن تتخيل حالها من الصور والأخبار المفزعة المبثوثة عنها، إلا أن بغداد التي ألزمت نفسي بأن أكتب لك عنها هي عالم آخر. إنها المكان الذي استرحت فيه من عناء السفر الطويل والغربة الشاقة، إنها سنوات الطفولة والشباب التي رحت أقرأ بقاياها في الوجوه والأماكن والعادات، إنها كيمياء من أواصر مصيرية لا أملك مفاتيح حلها.
من وحي بغداد المطمورة خلف ركام صور الدم والحرائق، اوصيك:
أن تتجول طويلاً في شوارع لويفن الصغيرة... وتذهب حتى نهاياتها لتتأكد من أن لا حواجز كونكريتية هناك، ولا أسلاكاً شائكة، ولا نقاط تفتيش ولا حرساً متأهبين لإطلاق النار... أن تخرج حين تشاء، لتتمشى أو تلعب أو تقصد دار السينما، ألا ترى الدم في الشوارع.... ولا بقايا جثث محروقة وسيارات محطمة، ولا ندوب الحروب الصغيرة على واجهات العمارات السكنية، ألا تتخيل ما حصل لركاب السيارة التي أمامك وقد ثقبها الرصاص، وتهشم زجاجها... وترك الموت العاصف أبوابها مفتوحة على مصاريعها، ألا تسمع رجّة إنفجارت قريبة، ولا يلازمك إحساس خطر وشيك،
ألا ينبهك دوي الإنفجارات البعيدة إلى حياة عبثية تفتك بأبنائها المتعبين، ألا يطاردك شبح الخوف مما هو مرئي أو غير مرئي، ولا تختبئ من رصاصة طائشة فتبتعد عن النافذة، وتهجر الحديقة والشرفة.
أن لا تحلم بإطلاق آخر رصاصة، وإنفجار آخر عبوة ناسفة، وغياب آخر إنتحاري،

أن تجلس عند المساء في غرفتك الهادئة، وتستمع إلى الموسيقى التي تحب. سوف لا يزعجك ضجيج طائرات مروحية دانية، ولا ترى الحمامات تفرّ مذعورة من بين أغصان الشجرة، ألا تتوقع إنقطاع التيار الكهربائي ليحرمك من متعة القراءة، أو مشاهدة التلفزيون أو اللعب بالحاسوب، ولا تضطر إلى شرب قهوتك في الظلام، أو كتابة رسالة على ضوء الفانوس، أو تأجيل قراءة الجريدة ليوم آخر، أن لا تأخذك الريبة بجارك... ولا تخشى نظرات المارة. فليس هناك من يرصد حركاتك لقاء دولارات قليلة من عصابة تصطاد الرهائن فتقايضهم أو تنحرهم، ألا ترتدي من الملابس إلا أجملها، ولا تشتري من الشموع إلا ما يضوع منه شذى العطور.

بين جسر باب المعظم وجسر الشهداء تمتد على جانب الرصافة بغداد القديمة. تحت ظلالها الأنيسة سنجلس يوماً لنسمع دقات ساعة القشلة، ونراقب اللقالق تحرس أعشاشها، ونتحسس حجارة مبانيها الصفراء. وتحت وهج الشمس البيضاء سنخطو نحو دجلة المتعب، المتأجج ابداً... حينها سندرك سرّ بغداد دون صورة أو خبر......